تطور بنية العائلة الجزائرية وفق مفهومي العمودية والأفقية

الأستاذ الدكتور: نصر الدين جابر، جامعة بسكرة، الجزائر

الباحث: خيذر عمارة ، جامعة بسكرة، الجزائر

الملخص:

سنحاول في هذا المقال تتبع تطور العائلة الجزائرية بداية من المرحلة قبل الاستعمارية إلى غاية الآن، معتمدين على باحثين نذكر منهم **لهواري عدّي، مصطفى بوتفنوشت، نور الدين طوالبي- ثعالبي وبيير بورديو** (Pierre Bourdieu).وسيتم تناول هذا التطور ضمن مفهوم نسقي يتمثل في "البنية" (La structure) ووفق مفهومي العمودية والأفقية، كي نصل في الأخير إلى تحديد خصائص العائلة جيدة البنية.

Abstract:

We're going through this article, follow the evolution of the Algerian family since the pre-colonial phase until today, referring to researchers as Lhouari Addi, Boutefnouchet Mustafa, Nour Eddine Toualbi-Thaâlibi and Pierre Bourdieu.

Please note that our conception of the Algerian family will also be treated according to the systemic concept of "structure" and the notions of verticality and horizontality. To finally get to determine the characteristics of a well-structured family.

مقدّمة:

"لا وجود في الواقع لرضيع بمفرده"[1] « Mais un bébé seul, ça n'existe pas »، هذه العبارة صدرت عن **وينّيكوت** (Winnicott) سنة 1940 خلال اجتماع علمي للجمعية البريطانية للتحليل النفسي؛ ويؤكد من خلالها على أنه لا يمكن دراسة وفهم الرضيع إلا من خلال السياق العام لوجوده، الذي يتطلب في هذه الحالة وجود الأم (البيولوجية أو البديلة).

من خلال نفس توجه **وينّيكوت** يمكن القول أيضا أن العائلة لا وجود لها بمفردها في الواقع، وإنما هناك عائلة ضمن مجتمع. لذلك لا يمكن دراسة وفهم هذه العائلة إلا من خلال فهم السياق الاجتماعي الذي تتواجد فيه، أي المجتمع الذي تنتمي إليه هذه العائلة. وهذا ما يتوافق مع آراء **عدّي**[2] عندما يؤكد على أنه من الصعوبة بمكان فصل وعزل العائلة من المجموع الاجتماعي الذي تندرج فيه، وذلك لكونها أول منتج للمعنى وللرابطة الاجتماعية من خلال اللغة والثقافة اللتين تنقلهما إلى الأبناء.

لقد تم تناول دراسة العائلة من وجهات نظر مداخل معرفية متعددة، نذكر منها على وجه الخصوص الأنثروبولوجية، الإثنوغرافية والسوسيولوجية؛ غير أننا سنحاول هنا التطرق إلى مفهوم تطور بنية العائلة الجزائرية معتمدين بالإضافة إلى المقاربة السوسيولوجية، على مقاربتي النسقية (Systémique) والتحليل النفسي (Psychanalyse). فمن وجهة النظر السوسيولوجية إن دراسة وفهم العائلة يمر حتما بدراسة وفهم المجتمع، فمهما كانت دقة وقيمة أي دراسة للظاهرة العائلية، فإنه لا يمكنها أن تدّعي قدرتها على تفسير الحركية والتفاعلات داخل هذه العائلة من دون وضعها في سياقها الاجتماعي.

انطلاقا من نفس الرؤية السابقة فإننا من أجل تناول بنية العائلة الجزائرية في هذا المقال، سنقوم أولا بتقديم نظرة حول المجتمع الجزائري بداية من المرحلة قبل الاستعمارية إلى الوقت الحالي معتمدين على دراسات باحثين من بينهم **نور**

الدين طوالبي - ثعالبي، لهواري عدّي، مصطفى بوتفنوشت وبيير بورديو (Pierre Bourdieu). كما نرى أنه من الضروري في البداية توضيح مفهومي العمودية والأفقية، حتى تتوضح أكثر المفاهيم اللاحقة الخاصة بالمجتمع الجزائري وبنية العائلة الجزائرية.

1 . مفهوما العمودية والأفقية:

في البداية يجب التأكيد على أن هذين المفهومين لا يختصان بعلم النفس فقط، وإنما هناك مجالات وتخصصات أخرى تم استعمالهما فيها، ففي الأدب مثلا نجد الكاتب اللبناني **أمين معلوف** في كتابه "الهويات القاتلة" يصرّح على أنه يودع لدى كل فرد منا نوعان من الإرث، أحدهما عمودي: يأتيه من الآباء، من تقاليد شعبه ومن طائفته الدينية؛ والآخر أفقي يأتيه من عصره، وممن عايشوه(3).

وإذا رجعنا إلى الدراسات السوسيولوجية، السيكولوجية، السيكوسوسيولوجية أو الأنثروبولوجية، فإننا نجد أن مفهومي العمودية و الأفقية قد استعملا في العديد من الأبحاث التي تناولت دراسة العائلة. وكانا يعبران دوما عن نوعية العلاقات السائدة بين أفراد العائلة، حيث أن مفهوم العمودية كان يرمز إلى العلاقات العمودية والتي كانت تعني بدورها تلك النوعية من العلاقات التي تربط بين الآباء من جهة والأبناء من جهة ثانية؛ بينما مفهوم الأفقية كان يرمز إلى العلاقات الأفقية والتي كانت تعني تلك النوعية من العلاقات التي تربط بين الإخوة فيما بينهم.

بما أنّ مفهوم العائلة يتناول تلك العلاقات التي تُنظم على المستويين العمودي والأفقي، أي بين الآباء والأبناء وبين الأبناء فيما بينهم؛ فإننا ارتأينا الرجوع إلى هذين المفهومين طوال هذا المقال في دراستنا لتطور بنية العائلة الجزائرية، إلا أننا لن نتوقف عند حدود العمودية والأفقية، وإنما سنتجاوزهما لنصل إلى تحديد العائلة جيدة أو سيئة البنية انطلاقا من هذين المفهومين.

إذا عدنا إلى بدايات التحليل النفسي، فإننا نلاحظ سيطرة مفهوم العمودية عند **فرويد**؛ وكمثال على ذلك رسالته لصديقه **فليس**(Fliess) (في المخطوطة A بدون تاريخ في نهاية (1892) شرح فيها فكرته حول "النروتيكا" (La neurotica) حيث أوضح أن الأمر يتعلق بصدمة جنسية يتعرض لها الطفل قبل سن الرشد من قبل قريب راشد. إذن يتعلق الأمر بشيء يحدث على مستوى لا تماثلي (Asymétrique) بين شخصين يختلفان في السن والنضج وهذا ضمن علاقة عمودية بحتة. حتى وإن تخلى **فرويد** بعد ذلك عن "النروتيكا" في رسالة أخرى كتبها لـ**فليس** بتاريخ 21- 09- 1897 يخبره فيها أنه لم يعد يعتقد بفكرته السابقة "يجب أن أفضي إليك بالسر الكبير الذي انكشف لي ببطء خلال هذه الأشهر. أصبحت لا أؤمن إطلاقا بالنروتيكا. إلا أنه لم يتخل كليا عن الفكرة الأساسية لنظريته، بل كل ما قام به **فرويد** هو تحويل المشهد العمودي من مشهد واقعي إلى مشهد هوامي[(4)].

إن مفهوم العمودية لم ينقطع ولو للحظة من الفكر الفرويدي، إذ يتواجد هذا المفهوم في التقنية العلاجية التي تعتمد على قوة نفوذ المعالج وقدرته على التأثير في المفحوص، العلاقة التحويلية والتي لها علاقة بوضعية معاشة في مرحلة الطفولة وصلة اللاتماثل بين المُحلِّل والمُحلَّل. كما يتواجد هذا المفهوم أيضا في تاريخ تطور التحليل النفسي ومؤسساته، ويشهد على هذا الصراع الدائر بين **فرويد** ومساعديه وتلامذته.

فيما يخص مفهوم الأفقية فإنه لم يأخذ مكانة مهمة في التحليل النفسي الفرويدي، ماعدا بعض المحاولات البسيطة في حياة **فرويد**، وهذا راجع لمقاومته ضد كل ما يمسّ بالنواة الصلبة للتحليل النفسي والذي يتمثل في الأوديب، هذا الأخير الذي يمثل مفهوم العمودية بامتياز. وسنذكر بعض المحاولات التي قام بها تلامذة **فرويد**، الذين نظّروا ضد مفهوم العمودية؛ من بين هؤلاء **آدلر** (Adler) **وفيرنتزي** (Ferenczi)، فالأول ابتعد عن النظرية الفرويدية لكونه لم يتقبل فكرة

إعطاء **فرويد** مكانة كبيرة لعقدة الأوديب في نظريته كمنظم للحياة النفسية، وبحث عن معنى آخر للحياة، للعمل النفسي واختلالاته[5].

ففي علم النفس الفردي أعطى **آدلر** مكانة كبيرة لغريزة حب الجاه وحب الظهور وكل ما تولّده من عقدة نقص أو تفوق – والاستعلاء بالنسبة للآخرين في علاقة تماثلية. وكل المشاكل التي قد تصيبنا في حياتنا لها علاقة إما بموقفنا نحو المشابهين لنا، في المهنة، أو الحب، حيث أن كل هذه الأشياء تدور حول نظرتنا لأنفسنا وللعالم المحيط بنا[6]. كل هذه الاعتبارات تنتمي لما أسماه **آدلر** بتطور الإحساس الاجتماعي؛ وهنا تتجلى أولوية النظرة الأفقية في نظرية **آدلر**.

أما **فيرنتزي** فقد تطرّق إلى المفهوم الأفقي فيما يتعلق بالإطار العلاجي وذلك لرفضه ما أسماه **فرويد** بالحياد أثناء العلاج . بالنسبة لـ**قرين** (Green) فإن موقف الحياد الذي اتخذه **فرويد** كان أحد الأسباب التي أدّت إلى ردّة فعل **فرنتزي** والتي ألحقت الضرر بمفهوم العمودية في النظرية الفرويدية. السبب الآخر تم شرحه من قبل **فرنتزي** عام 1932 في كتابه "غموض اللغة بين الراشدين والطفل" (Confusion de langue entre les adultes et l’enfant) أين حاول **فرنتزي** شرح التحويل على أساس كونه أحد أشكال التكرار الناجم عن الصدمة الطفولية. وهذه الصدمة تكون ناجمة عن اعتداء نفسي، أي عدم فهم لغة الأطفال أوالتبعية المفرطة لرغبات الأولياء أو أيضا الحرمان من الحب؛ وهذا لجهل الأولياء لرغبات الطفل[7].

وبهذا فإن الحياد الموجه نحو تحويل المفحوص أثناء العلاج يعتبر كحادث صدمي ثاني يحدث أثناء النكوص، واختلاط اللغة الذي عاشه المفحوص أثناء طفولته اتجاه الراشدين يتكرر ثانية في العلاج التحليلي عند مواجهته حياد المحلّل النفسي. حسب **فرنتزي** فالحياد الذي يتبناه المحلّل النفساني سيعقد الأمور وسيحفز ظاهرة التكرار المرضي أثناء العلاج، وهذا ما يعني المقاومة وفشل سير العلاج. هذا التفسير جعل كل من **فرنتزي** و**رانك** (Rank) يعوّضان تقنية الحياد بتقنية أكثر فعالية أثناء العلاج والتي تفترض أن يكون حضور وتدخلات المحلّل النفساني أكثر

توجيها وهذا ما سيمنع ظهور العصاب التحليلي ومعاودة معايشة البعد العمودي للأوديب[8].

2 . نظرة حول خصائص المجتمع الجزائري:

كما ذكرنا سابقا فإنه لدراسة وفهم البنية العائلية، فلا بد من فهم البنية الاجتماعية حيث تأخذ العائلة من هذه الأخيرة معطياتها ومواردها؛ وتتم هذه العملية من خلال نشاط وديناميكية التفاعل بين الفرد وعائلته ثم بين الأسرة والمجتمع بمعناه الواسع. وهذا ما يؤكده **عدّي** حيث يرى أنه من الصعب فصل وعزل العائلة عن المجتمع الذي انبثقت منه، فهي المنتج المباشر للمعنى والروابط الاجتماعية عن طريق اللغة والثّقافة التي تنقلها للأطفال[9].

نظرا لهذه الاعتبارات كان لابد علينا الرجوع إلى خصائص المجتمع التي من خلالها تطورت العائلة الجزائرية؛ علما أننا سنحافظ خلال تقديمنا لهذا الجزء من المقال على نفس النظرة التي سنعالج بها القسم الذي يخص البنية العائلية وهذا حسب مفهوم العمودية والأفقية.

لقد كان الواقـع الاجتماعي أثناء مرحلـة ما قبل الاحتلال الفرنسي يتّسم بازدواج نمط الحياة الحضري والبدوي، غير أن الحـياة الحضرية لم تكن بالمعنى المتعارف عليه حاليا، بل ريفية إلى حد كبير، بحيث أن البلد ريفي مع وجود دائم لتجمعات سكنية حضرية. وتعتبر القبيلة بمثابة الإطار الاجتماعي السياسي داخل المنطق الاجتماعي؛ ذلك أن نـمط السكن، وعدم جواز تقسيم أرض الجماعة القبـلية النابع من إرادة المجموعة في التكيف مع المعطيات الطبيعية، كل ذلك يثبت وجود نظـام يمفصل بنى لا معنى لها إلا داخـل منطق هذا النظـام، الذي هو المنـطق الاجتماعي[10].

كما ساد المجتمع الجزائري في ذلك الوقت تطـور ثقـافي، يعود إلى بقاء التعليم حرّا من سيطرة الحكام والدولة؛ فقد كان سكـان كل قـرية ينظمون

بطرقهم الخاصة ووسائلهم الذاتية تعليم القرآن الكريم والحديث والعلوم الإسلامية[11].

غير أنه مع بداية الحقبة الاستعمارية أصبح المجتمع الجزائري خاضعا لثقافتين مختلفتين، أولها ثقافة جزائرية تقليدية وهي التي كانت سائدة في المجتمع قبل الاستعمار، وثقافة أوروبية غربية جاء بها المستعمر الفرنسي، ألصقت بها الكثير من الدراسات خاصة الأنثروبولوجية منها صفة الحداثة.

إن التقاء هاتين الثقافتين - الجزائرية التقليدية والفرنسية الغربية الحديثة - لم ينتج عنه تحديث للثقافة الجزائرية التقليدية من قبل الثقافة الغربية الحديثة، بل حدث تصادم بينهما ولعل من بين أسباب هذا التصادم هو أن الالتقاء أو الاحتكاك بين الثقافتين لم يكن طبيعيا ولا إراديا، بل كان بصورة قهرية، بقوة السلاح وبقانون القوة؛ وهذا ما ينتج عنه حسب **باستيد** (Bastide) "ظاهرة تثاقف" دون اكتساب خصائص ثقافية (Phénomène d'acculturation)[12].

رغم محاولات بعض الدراسات خاصة الأنثروبولوجية منها إظهار جوانب إيجابية للاستعمار الفرنسي للجزائر وللاستعمار بصورة عامة، كالتحضر، التمدن والحداثة. إلا أن الاستعمار يبقى استعمارا ترفضه الطبيعة البشرية السوية رفضا مطلقا؛ فمن يحاول تبرير الاستعمار أو إبراز بعض "محاسنه" (إن وجدت)، كمن يتباهى بذكر تحلية قطعة سكر لماء المحيط المالح، أو كمن يضيف عسلا إلى جرعة سمّ قاتل طمعا في تحلية مذاقه، فإنه لن يحوله إلى عسل بل يبقى هذا السمّ سمّا قاتلا لكل من يتناوله.

بعد الاستقلال أخذ التحديث معنى آخر يختلف عن ذلك الذي أخذه خلال المرحلة الاستعمارية، فالتحديث لم يعد مفروضا من قبل الثقافة الفرنسية الاستعمارية، بل أصبحت تضطلع به الدولة الجزائرية الوطنية. غير أن هذه العملية لم تكن بدون مشاكل حيث يرى **طوالبي- ثعالبي** في تحليله للمجتمع

الجزائري أن هناك مشاكل عرفتها بلدان المغرب العربي بعد الاستقلال على غرار المغرب، الجزائر وتونس، لها علاقة بالتناقض والغموض في الهوية[13].

إن المجتمع الجزائري وجد نفسه بعد الاستقلال في وضعية تحوّل سريع، ومحصورا بين ثقافتين مختلفتين ومتضادتين، ولهذا كان لزاما عليه تطوير نظام التكيّف التوفيقي (Système d'adaptation syncrétique)؛ ودائما حسب **طوالبي- ثعالبي** فإن هذا المذهب التوفيقي كشف عن انتقال المجتمع الجزائري التقليدي المشبّع بالثقافة الإسلامية إلى مجتمع عصري يرمز للأيديولوجيا الغربية، بحيث يكتشف الفرد فيه أنه مقتلع من جذوره "Déraciné" بصفة مضاعفة. بالنسبة للثقافة الجديدة التي لم يستطع بعد تقبّل القواعد الزمنية التي تفرضها عليه من جهة؛ ومن جهة أخرى فهو لن يجد القيم الأمنية القديمة التي لم يعد يتقاسمها، هذا ما يولّد الشعور بالتشوّه في الهوية والاقتلاع من الجذور الثقافية[14].

قبل المواصلة في مناقشة خصائص المجتمع الجزائري بعد الاستقلال لابد أن نشير إلى كون الثقافتين المتضادتين اللتين تكلم عنهما **طوالبي- ثعالبي** والمتمثلتين في الثقافة الجزائرية التقليدية والثقافة الغربية الحديثة بنموذجها الاستعماري، لا تتعدى كونهما ترمزان لمفهومي العمودية والأفقية. لذلك فالمجتمع التقليدي يمثل العمودية والمجتمع الحديث يمثل الأفقية.

إن هذا الشعور بالتشوه في الهوية والاقتلاع من الجذور الثقافية أدخل المجتمع الجزائري في تناقض أفقده تجانسه (Homéostasie)، ويرجع **طوالبي- ثعالبي**[15] و**عدّي**[16] أسباب ذلك إلى كون البنية - مهما كانت متجانسة - فإنها عندما تعيش تحولات يمكنها أن تعرف اضطرابات وهذا لكونها تقوم بإعادة الترتيب والرّبط بين مختلف العناصر المكونة لها، فالتغيير يغذّيه حاجة المجتمع إلى التطور والإثراء لكنه يتميز بأزمة الانتقال. ولكي ينتقل المجتمع من مستوى تطوري إلى آخر عليه أن يتحمل الانفتاح في محيطه وحدوده حتى يترك المجال لعناصر أخرى تنتمي لثقافات أخرى والتي تعتبر ضرورية في إثراء ثقافته الأصلية؛ هذه المرحلة التحوّلية تدعى بـ"ظاهرة التحوّل الثقافي".

يرى **عدّي**[17] أن هناك أسباب أخرى ساهمت في وضعية التناقض الثقافي وأزمة الهوية التي وجد المجتمع الجزائري نفسه فيها بعد الاستقلال مباشرة من أهمها النزوح الريفي، إذ يؤكد على أن القطيعة الحقيقية مع النظام العمودي ظهرت بعد الاستقلال الذي شجع الهجرة من الأرياف إلى المدن، وهذا ما أدى إلى تدهور المجتمع بصفة أخطر ممّا كان عليه وهو تحت وطأة الاستعمار.

لقد ألقينا في هذا الجزء نظرة مختصرة عن بعض خصائص المجتمع الجزائري في مراحله المختلفة وذلك من أجل مساعدتنا أكثر على فهم خصائص العائلة الجزائرية، هذا المفهوم الذي سنتناوله في الجزء الموالي.

3. تطور بنية العائلة الجزائرية:

لا يمكن الوقوف على حجم وعمق التحولات التي طرأت على بنية العائلة الجزائرية المعاصرة وطبيعة العلاقات بين أفرادها ودور كل واحد منهم دون الرجوع إلى الخصائص السوسيوثقافية للعائلة التقليدية؛ وهذا ما يذهب إليه **سلاطنية ومالكي**[18] حيث يؤكدان على أنه لا يمكن معرفة التحولات التي عرفتها الأسرة الجزائرية المعاصرة دون الإلمام بالخصائص السوسيولوجية للعائلة أو الأسرة التقليدية. لذلك فإننا سنعود إلى مختلف الدراسات والبحوث التي تناولت الأسرة الجزائرية التقليدية رغم قلتها، كما أننا سنتناول هذا العنصر الخاص ببنية العائلة الجزائرية وفق مفهومي العمودية والأفقية.

لقد عرّف **بوتفنوشت**[19] العائلة الجزائرية التقليدية على أنها عائلة موسعة، حيث تعيش في أحضانها عدة عائلات زواجية وتحت سقف واحد، الدار الكبرى عند الحضر والخيمة الكبرى عند البدو، إذ نجد من 20 إلى 60 شخص أو أكثر يعيشون جماعيا.

ولقد أجمع كل من درس الثقافة الجزائرية على أنها تتميّز بالتنظيم وفق مفهوم العمودية، إذ يتعلق الأمر بـ" ثقافة النظام الأبوي (La culture patriarcale) الذي ينظم العلاقات داخل العائلة، والذي تحت شعاره يجتمع وينتظم الأفراد في

الإطار العائلي. كما ينظم كل أنواع المعاملات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية"[20]. وما يميز هذه الثقافة هو أن الأب أو رب العائلة يمثل القانون، الحقيقة وكل ما هو مقدس؛ و ذلك لكونه يحتّل مكانة عالية (لا تماثلية) مقارنة بأفراد أسرته؛ فهو ملزم بتحمل أعبائهم، حمايتهم، وتأمينه لهم مكانا في المجموعة؛ وفي المقابل يطلب منهم الاحترام، الطاعة وحتى التقديس. في هذه الوضعية يتبع الأب ويطاع حتى وإن كان على خطأ. وبالتالي كل ماله علاقة بالديمقراطية، استقلالية الفرد، حرية التعبير والنقد، فهو مرفوض ويعتبر جحودا وارتدادا. من هذا المنظور فأفراد المجموعة لا يمكنها رؤية نفسها خارج الفائدة العامة للمجموعة، التي تتماشى فائدتها مع فائدة رب العائلة.

وفي نفس الوقت فإن العائلة في المجتمع التقليدي لا تتمتع بالحرية الكافية في اختيار طريقة حياتها، إذ يستوجب عليها إتباع وطاعة رب الجماعة (المجموعة العائلية أو القبيلة) وكل محاولة للمقاومة أو النقد تُؤوّل على أنها رفض للخضوع لإرادة المجموعة، يعني لإرادة الحاكم. هذه الوضعية يمكنها أن تكلّف هذه العائلة الطرد وسحب الاعتراف بكل ما يحمله من آلام مادية ونرجسية.

إذا ما تتبعنا تطور العائلة الجزائرية بنفس المنظور الذي تناولنا به تطور المجتمع الجزائري أي من المرحلة قبل الاستعمارية إلى الآن، للاحظنا أن في المرحلة قبل الاستعمارية أين كان المجتمع الجزائري تقليديا كانت أيضا العائلة الجزائرية من النوع التقليدي تماما حسب التعريف الذي قدّمه **بوتفنوشت**، ورغم التدمير الذي أحدثه المستعمر في المجتمع بعد دخوله، بقيت العائلة الجزائرية متمسكة بدينها وتقاليدها؛ وبالتالي استمرار العائلة التقليدية. إن تمسّك الجزائري المفرط بالدين والتقاليد في ذلك الوقت لم يكن اختيارا فقط بل كان قضية حياة أو موت، فهذا التمسّك فقط هو الذي سيمنحه القوة لمقاومة المستعمر وسيحفظه من الزوال والاندثار. وبالفعل استطاع الجزائري الحصول على حريته بعد تضحيات جسام.

إذن مع زوال خطر الاندثار بزوال الاستعمار الغاشم هل استمر الجزائري في المحافظة على تقاليده بنفس الرغبة التي كانت سابقا؟ أي هل بقيت العائلة الجزائرية التقليدية مستمرة حتى بعد الاستقلال؟

من خلال الدراسة الميدانية التي أجراها **بوتفنوشت** نهاية السبعينات من القرن الماضي في كل من الجزائر، وهران وعنابة أين وجد أن نسبة العائلات المحدودة تتساوى تقريبا مع نسبة العائلات المركبة وهي 51,3 ٪ و48,7 ٪ على التوالي؛ والدراسات الميدانية التي أجرتها **أوصديق** سنة 1988 م بالجزائر العاصمة، يمكن تصنيف بنية العائلة الجزائرية حينها إلى نمطين: نمط العائلة النووية وتتشكل من الأب، الأم والأطفال؛ ونمط العائلة المركبة والتي تتشكل من عدة أزواج (Couples) مع الأطفال[21].

نستنتج من دراسات **بوتفنوشت** و**أوصديق** المشار إليها سابقا أنه حدثت تحولات في بنية العائلة الجزائرية بعد الاستقلال، حيث أنها لم تبق عائلة تقليدية موسعة حسب تعريف **بوتفنوشت**، بل تحولت إلى نمطين مختلفين، تمثل الأول في بنية عائلية محدودة (عائلة نووية)، والثاني في بنية عائلية مركبة. غير أن هناك دراسات أخرى ترفض هذا التصنيف ولا تقر بتحول العائلة الجزائرية إلى النمط النووي، إذ ترى هذه الدراسات أنه حتى وإن لاحظنا أن العائلة الجزائرية بعد الاستقلال، لم تعد تحوي نفس عدد الأجيال كما كان الحال سابقا في العائلة التقليدية، إلا أن ذلك لم يجعل حجمها يتقلص بدرجة يسمح لها بالتحول من العائلة الممتدة (الموسعة) إلى العائلة المحدودة (النووية).

ومن بين هذه الدراسات تلك التي قامت بها **لوراس- لوكو** (Lauras-Locoh) حيث أنها عند مقارنتها لمعطيات التعداد السكاني في الجزائر بين عامي 1966 و1977 لاحظت أن متوسط حجم العائلات الجزائرية انتقل من 5,9 إلى 6,6 أفراد على التوالي. مما جعلها ترفض فكرة تحوّل العائلة الجزائرية إلى النمط المحدود (عائلة نووية). وهي ترى أن العائلة الجزائرية تتحول إلى عائلة نووية موسعة، تتشكل من نواة عائلية مركزية ينضم إليها أفراد آخرون من الأقارب[22].

وإذا عدنا إلى التحقيق الميداني الذي أنجزته المديرية التقنية المكلفة بالإحصاءات الاجتماعية والمداخيل عام 2011 نلاحظ أن متوسط حجم العائلة الجزائرية على المستوى الوطني هو 06 أفراد، وهو قريب من الرقم المتحصل عليه في إحصاء 1977 الذي هو 6,6، كما أن نسبة العائلات الجزائرية التي لا تحتوي على أي شخص يقيم معها في نفس البيت وهو ليس من أفرادها هي 9,8 ٪ فقط، بينما نسبة العائلات التي تحتوي على الأقل على شخص واحد هي 90,2 ٪[23]، وهذا ما يعزّز الفكرة السابقة والتي ترى أن العائلة الجزائرية تتحول إلى عائلة نووية موسعة، تتشكل من نواة عائلية مركزية ينضم إليها أفراد آخرون من الأقارب.

من بين الأسباب المقدمة لشرح ظاهرة عدم تحول العائلة الجزائرية إلى النمط النووي هي أزمة السكن، وما يدعم هذا الطرح هو أنه لوحظ أن أغلب الشباب الجزائري بعد الزواج يبقى في البيت العائلي ولا يستقل بسكن خاص به. كما أن هناك عائلات في المناطق الحضرية تقوم بإيواء أفراد من الأقارب جاءت من الريف أو القرية أو مدينة أخرى بحثا عن العمل. وفي حالة قيام الأم بعمل خارج البيت ونظرا لقلة الهياكل الخاصة باستقبال الأطفال كالروضات، فإن العائلة تضطر إلى استقبال وإيواء أحد الأقارب كالعمة، الخالة أو الجدة للتكفل بالأطفال أثناء عمل الأم.

كما يعتبر تأخر سن الزواج من بين الأسباب الأخرى المقدمة حول عدم تحول العائلة الجزائرية إلى النمط النووي. وبالفعل فإن الشباب عادة ما يجبرون على البقاء مع أوليائهم بسبب مواصلة دراستهم العليا أو بسبب البطالة التي يعانون منها. وتؤكد **سيغالن** (Segalen) على أن استمرار هذا النوع من البناء العائلي، لا يعني بأي حال من الأحوال استمرار لوضعية سابقة أي الاستمرار في المحافظة على العائلة التقليدية الموسعة بل بالعكس هو مؤشر على أزمة اقتصادية واجتماعية[24].

إن الجزائر مثلها مثل بقية الدول النامية لم تنج من مختلف التحولات التي تعرضت لها بعد الاستقلال كالنزوح الريفي وآثار التصنيع. هذه التحولات قد

أثرت أيضا على التنظيم العائلي. حيث بينت دراسة **بوتفنوشت**(25) أن البطريقية لم تعد تبدو بنفس المظهر بل أصبحت رمزية فقط. فالأب وبدرجة أقل الجد، لم يعد المالك الوحيد للسلطة مثلما كان عليه منذ وقت قريب. القرارات العائلية أصبحت تتخذ بصورة تشاورية مع الأم (خاصة إذا كانت موظفة) أو مع الأبناء البالغين.

تؤكد **ڨران** (Graine) على أن هناك مجموعة من الملاحظات يجب أخذها بعين الاعتبار للتمكن من فهم العائلة الجزائرية، فكما أنها متأثرة بالثقافة الإسلامية وبالفضاء المتوسطي أين يسود النظام البطريقي، فهي أيضا متأثرة بسلسلة التغيّرات والتحولات التي أصابت الدول النامية مثل: النزوح الريفي، النمو الديمغرافي وأزمة السكن. ومن وجهة نظرها دائما فإن العائلة الجزائرية لا تجد مكانا لها في النظرة السوسيولوجية التقليدية التي توزع المجموعات السكنية وفق حجمها، من أجل الوصول إلى تصنيف بسيط: "عائلة ممتدة" و"عائلة نووية". وإذا ما استعرنا عبارة (Lauras-Locoh) بخصوص العائلة الإفريقية.

يمكن القول أن العائلة الجزائرية "تصنع الجديد من القديم" "Fait du neuf avec du vieux". نلاحظ بالفعل بروز عائلات مركبة أو عائلات في نصف الطريق بين العائلات الممتدة والضيقة، ميزتها المحافظة على سلوكات التعاون والتضامن بين الأجيال، واستمرار المثل الأعلى للخصوبة المرتفعة ولعديد من السلوكات الأخرى التي كان من المنتظر أن تزول وتختفي. لذلك فإن العائلة الجزائرية تقاوم التغيير(26).

رغم مقاومة العائلة الجزائرية التقليدية للتغيير - حسب وجهة نظر **ڨران** - فإن **سلاطنية ومالكي** يريان أنه رغم ذلك حدثت تحولات وتغيّرات في بنيتها، نتج عنه بنى أسرية يغلب على بعضها طابع الحرية والتفتح ونبذ التقاليد والعادات؛ وبنى أخرى تميل للمحافظة على التقاليد ورفض المعايير الجديدة، وبنى أسرية أخرى تأقلمت مع نمط المعايير الجديدة مع الاحتفاظ بمجموعة من العادات والتقاليد والقيم الأخلاقية والدينية(27).

أما إذا عدنا إلى مفهومي العمودية والأفقية فإن **مكيري**[28] يصنف العائلة الجزائرية المعاصرة وفق هذين المفهومين إلى:

1.3 عائلة أحادية المنظور:

هذا النوع من العائلة إما أنه انغلق على نفسه في العمودية باختياره الرجوع إلى الثقافة التقليدية التي تعمل على إزالة الثقافة الدخيلة؛ وإما أنه تبنى التمرد ضد الشخصيات العمودية، المتهمة بكونها سببا في الاختناق ونقص الحرية والفقر الفكري؛ والانفتاح الكلي على الثقافة الجديدة التي تمثل العلم والعالمية، التطور والتمدن. هذه الأخيرة أرادت محو كل ما له علاقة بالأصل، الدين والتقاليد. وحسب **بوتفنوشت**[29] فإن هذا النظام العصري أحدث قطيعة مع التقاليد لكي يرسّخ المفهوم العقلاني في نظرته للعالم وللحياة، وكأنه تعمّد تعميق الهوّة بينه وبين الأنظمة السابقة.

2.3 عائلة ثنائية المنظور:

وهي العائلة التي تحمل المنظور العمودي والأفقي في نفس الوقت، نستطيع هنا التفريق بين نوعين من التوظيفات التي تنتمي لهذا المنظور:

- **عائلة عمودية - أفقية توافقية:** هذا النوع من العائلات، حاول الخروج من النظام التقليدي الذي ميّز المجتمع الجزائري التقليدي؛ والدخول في النظام المعاصر الذي جاءت به العولمة تحت اسم الحضارة والتحضّر؛ إلاّ أنّ هذه العائلات لم تتمكّن من اللّحاق بهذا الأخير وفي نفس الوقت فقدت مقوّمات النظام التقليدي؛ وبالتالي وجدت نفسها منحصرة بين النظامين المتناقضين، هذه الوضعية جعلتها تعيش في أزمة تحوّل دائمة.

- **عائلة عمودية - أفقية منسجمة:** تعرف هذه العائلات بكونها لم تشهد نفس التجارب التي شهدتها العائلات السابقة، إذ أنها لم تفرض عليها نفس الضغوطات، يعني أنها لم تتعرّض لنفس العوامل التي كانت وراء ظهور العائلة

التوافقية كالهجرة الريفية والتعلّق المفرط للجزائريين بالثقافة التقليدية والدينية إلى حد رفض كل تسوية.

يوضح كل من **بوتفنوشت**[30] **وعدّي**[31] أن هذا النوع الأخير من العائلات رغم أنه كان يعيش في الجزائر إلاّ أنه أخذ الوقت الكافي للتأقلم مع ظاهرة التغيّر ومواكبة العولمة. فبطريقة غير مقصودة كانت تلك العائلات تعيش وفق المنظور الاجتماعي الأفقي دون أن تنسى كونها تنتمي إلى مجتمع يسيّره المنظور العمودي؛ وكذلك دون أن تتخلّى عن عموديتها أي عن دينها وتقاليدها. لقد أخذت هذه العائلات الوقت الكافي للتأقلم والتكيّف مع مناخ يحدّده احتكاك الثقافتين والاستفادة من كليهما على حدّ سواء؛ فما قامت به هذه العائلات هو نوع من التغيّر وليس تحوّل، بحيث أنها حافظت على ميزات الثقافة العمودية باحترام التقاليد والتمسّك بالدّين؛ وفي نفس الوقت انفتحت على الأفقية بالمساواة في المعاملات بين أفراد العائلة وأفراد المجتمع.

بعد تناولنا للبنية العائلية وفق منظوري العمودية والأفقية سنعمل من خلال هذين المفهومين على تحديد خصائص العائلة جيدة البنية؛ والتي لا تتحقق إلا بحضور العمودية والأفقية في العائلة، ونوضّح ذلك في النقاط التالية:

✓ **حضور البنية العمودية:** هذه البنية معرّفة بالزوج (الأب والأم) في نظر الطفل. وبالتالي نتحدث عن الوظيفة الأبوية أو الأمومية والتي يمكن أن تضمن من قبل شخص آخر غير الأم أو الأب البيولوجيين مثل (الخالة، العمة، الجدة أو الحماة...) أو (الخال، العم، الجد أو الحمى...).

✓ **حضور العلاقات وسط البنية العمودية:** نؤكد هنا على أنه لا يكفي حضور الوظيفة العمودية، بالنسبة للطفل ولكن يجب أن يكون هناك علاقات، ممر وروابط بين الوظيفتين(الأبوية والأمومية). عندما نقول روابط، نقول أيضا حدود، وهذا ما يعني ضرورة وجود أفكار (بخصوص الطفل) والتي يتم مناقشتها بين الوظيفتين.

هذا ما يجعل كل وظيفة داخل العائلة تدرك أنه هناك أشياء داخل الأسرة تفوقها وتخفى عنها.

- **حضور البنية الأفقية:** والمقصود هنا بالأفقية الإخوة؛ ولكننا نتحدث عن الوظيفة الأخوية، أي بالإضافة إلى الأخ (من نفس الوالدين)، أخ (من أحد الوالدين)، أخ متبنى، وحتى ابن العم أو ابن الخال المتواجد دائما بالبيت والذي يتقاسم أشياء مع أفراد الأسرة. كل هؤلاء يمكنهم لعب دور الوظيفة الأفقية.
- **حضور العلاقات في وسط الوظيفة الأفقية:** نتحدث هنا عن الروابط والحدود، وبالتالي فإن كل أخ أو أخت تربطه علاقات بباقي الإخوة والأخوات؛ وفي نفس الوقت فإن كل واحد منهم يعلم أنه توجد علاقات مفضلة بين بعض الإخوة ويتقبل وجود هذا النوع من العلاقات.
- **حضور البنيتين العمودية والأفقية في نفس الوقت:** وهذا ما يبعث إلى بنية العائلة الكاملة، وهذا لكون وجود البنية العمودية دون الأفقية أو العكس يولد توظيفا مستقيما أي أحادي الاتجاه؛ وهذا النوع من التوظيف عادة ما يكون صلبا ولا يمتاز بتنوّع دفاعاته.
- **حضور العلاقة بين البنية الأفقية والعمودية:** هنا يمكننا الحديث عن الوظيفة البنيوية (la fonction structurante) للعائلة؛ تعرّف هذه الوظيفة بسلسلة من النشاطات تشكّل فيها العلاقات وتحترم الحدود؛ مع العلم أنه لا قيمة للعلاقة في ضلّ غياب الحدود.

خاتمة:

تشير جميع الدراسات التي تناولت العائلة الجزائرية أنها كانت خلال المرحلة قبل الاستعمارية عائلة تقليدية، من النمط الممتد حسب تصنيف علم الاجتماع، تخضع للثقافة البطريقية. ومع دخول الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر بثقافته الغربية الاستعمارية ازداد تمسك الجزائري بهذا التنظيم العائلي التقليدي، حيث اعتبره الوسيلة الوحيدة التي تسمح له بمقاومة الزوال والاندثار وبالتالي الاستمرار في الوجود.

بعد الاستقلال في بداية الستينات، الجزائر مثلها مثل باقي المجتمعات النامية التي تحصلت على استقلالها حديثا، بدأت تحدث فيها تحولات عميقة أثرت على مختلف مناحي الحياة. رغم مقاومة العائلة الجزائرية التقليدية لتلك التحولات إلا أنها لم تبق محافظة على نفس النمط الممتد الذي كان معروفا سابقا، وفي نفس الوقت لم تتحول إلى النمط النووي، بتلك الخصائص التي يتفق عليها السوسيولوجيون. لذلك ظهرت تصنيفات جديدة مثل عائلة نووية موسعة، عائلة مركبة وعائلة متحولة لتعريف العائلة الجزائرية المعاصرة.

ومن أجل فهم أكثر للعلاقات بين أفراد العائلة تم اللجوء إلى مفهومي العمودية والأفقية، ومن خلالهما تم تقديم العائلة الجزائرية التقليدية على أنها عائلة تخضع للمفهوم العمودي، ومن أجل أن تكون العائلة جيدة البنية يستوجب عليها في نفس الوقت حضور الوظيفتين العمودية والأفقية دون غياب الحدود.

❖ هوامش البحث:

(1) Winnicott, D.W (1989). **L'angoisse liée à l'insécurité. (J. Kalamanovitch, trad.)**. *in De la pédiatrie à la psychanalyse* (pp. 198-202). Paris : Payot.

(2) Addi, L. (1999). *Les mutations de la société algérienne, Famille et lien social dans l'Algérie contemporaine.* Paris : La découverte.

(3) Mekiri, K. (2011). *Adolescent et traumatisme de guerre : résilience et liens familiaux. Rôle des représentations familiales dans le processus de résilience.* Thèse de Doctorat en psychologie clinique et psychopathologie, Université de Rouen, Rouen.

(4) Ibid.

(5) Ibid.

(6) Adler, A. (1975). *Le sens de la vie ; étude de psychologie individuelle.* Paris : Payot.

(7) Green, A. (1990). *La folie privée*. Paris : Gallimard.

(8) Mekiri, K. Op.cit.

(9) Addi, L. (1999). Op.cit.

(10) Addi, L. (1985). *De l'Algérie précoloniale à l'Algérie coloniale, Economie et société.* Alger : ENAL.

(11) خروف، حميد. (2002): **سياسة التنمية في الجزائر رؤية سوسيولوجية**. *مجلة الفكر السياسي*، (17)، 186 – 205.

(12) Cuche, D. (2010). *La notion de culture dans les sciences sociales* (4e éd.). Paris : Editions la découverte.

(13) Toualbi-Thaâlibi, N. (2001). L'identité au Maghreb : L'errance (2e ed.). Alger : Casbah éditions.

(14) Toualbi-Thaâlibi, N. (2001). Op.cit.

(15) Ibid.

(16) Addi, L. (1999). Op.cit.

(17) Addi, L. (1999). Op.cit. p. 21.

(18) سلاطنية، بلقاسم، ومالكي، حنان. (2012، مارس). **أساليب التربية المتغيرة في الأسرة الجزائرية.** *مجلة علوم الإنسان والمجتمع*، (01)، 65 – 86.

(19) Boutefnouchet, M. (1984). *La famille algérienne, évolution et caractéristiques modernes*. Alger : OPU.

(20) Addi, L. (1999). Op.cit. p. 12.

(21) Addi, L. (2005). Femme, famille et lien social en Algérie. *in* A. Kian-Thiébaut & M. Ladier-Fouladi (Ed.). *Famille et mutations socio-politiques. L'approche culturaliste à l'épreuve* (pp.71-88). Paris : éditions de la maison des sciences de l'Homme.

(22) Graine, L. M. (2006). *Etre une femme en Algérie, action sociale*. Thèse de doctorat en sociologie, Université Paris 8, S[t] Denis (93), Paris.

(23) Office National Des Statistiques (2014). *Enquête sur les dépenses de consommation et le niveau de vie des ménages 2011. Dépenses de consommation des ménages algériens en 2011.* Collections Statistiques N° 183. Série S : Statistiques Sociales. P. 21.

(24) Graine, L. M. Op.cit.

(25) Boutefnouchet, M. (1979). *Les travailleurs en Algérie*. Alger : S.N.E.D.

(26) Graine, L. M. Op.cit.

(27) سلاطنية، بلقاسم، ومالكي، حنان. مرجع سبق ذكره. ص 66.

(28) Mekiri, K. Op.cit.

(29) Boutefnouchet, M. (2004). *La société algérienne en transition.* Alger : OPU.

(30) Boutefnouchet, M. (1984). Op.cit.

(31) Addi, L. (1985). Op.cit.